● الفصل الثالث

الناحيـة السياسيـة

- التمهيـد : مسألة الخلافة والإمامة والفرق بينهما.
- ضعف الخلافة العباسية. أعراضه وعلله.
- نشوء الدويلات.
- ميلاد الدولة السلجوقية.
- طغرلبك «المؤسس الأول» لدولة السلاجقة.
- عميد الملك الكندرى أول وزير لآل سلجوق.

تمهيـــد: (مسألة الخلافة والإمامة والفروق بينهما) :

ولمّا انتهى بنا الحديث إلى الناحية السياسية يجدر بنا أن نشير إلى اختلاف الباحثين فى معناها وأهدافها والوسائل المؤدية لتنفيذها لنخلص إلى لون السياسة التى كان ينتهجها «نظام الملك» ونوع الطريق الذى يتخذه لتحقيق أهدافه لولا خوف الإطالة والخروج عن صميم الموضوع. على أن أقرب تلك المعانى إلى الذهن هى نُظُم الحكم وأول هذه النظم هى «الخلافة» التى ينبغى ألاّ يفوتنا الحديث عنها وإن كان مختصرًا.

لقد كان لنظرية الخلافة - طراز الحكم آنذاك ومن هو الخليفة على المسلمين - صدى كبير فى مجتمع تلك العصور شمل مجامع العلم ومجالس الدين وعمّ القرون الأربعة حتى القرن الخامس، عهد وزيرنا «نظام الملك».

فالخليفة من حيث النسب أهو من آل محمد أم من قبيلته.. أهو من أبنائه من فاطمة وعلى أم من غيرهما.. أهو من قريش أم من العرب، ومن العرب أو المسلمين؟. ومن ناحية الخَلْق ما هى صفاته؟ ومن جهة الخُلق ما هى ميزاته؟ ثم ما هى طريقة تعيينه أهى موروثة أم بنص من سابقه أم بانتخاب؟ وهل الانتخاب مباشر أم بترشيح وهل الترشيح لواحد أم أكثر؟ وهل يكون انتخاب المسلمين ممثلاً فى ولاة الأمصار أم باجماع ذوى الرأى من أهل الحل والعقد؟

وكنتيجة لهذه النزعات فقد تنوعت الخلافات التى ظهرت طوال خمسة قرون تقريبًا: فكانت خلافة الراشدين والأمويين من قريش تمثل قبيلة النبى، وخلافة العباسيين من أعمامه تمثل أسرته، والفاطميين والعلويين تمثل أبناءه من على وفاطمة.

كل هذه كانت مسائل خلاف شاعت فى أندية القوم وتسبّبت فى انقسامهم وتفرّقهم إلى أن استقرت الخلافة فى قريش تحميها رهبة السيف وتحوطها هالة الدين فإذا فقدتهما أصبحت رمزًا يحكم باسمه القضاة والحكام ويستغله ذوو المصالح من الحاشية لاستمرار نفوذهم وتقوية سلطانهم، وهذا ما انتهت إليه الخلافة العباسية فى العصر الذى نتحدث عنه.

وبذلك شغلت مسألة الخلافة أذهان الناس خلال القرون الوسطى بحيث قلّ أن تشغله مسألة مثلها.. ولذلك تضافرت لعلاجها ومساندتها جهود الفقهاء وعلماء الدين ورجال السياسة وبحثها كل منهم من الزاوية التى يراها ولكنهم أجمعوا على تأييدها وضرورتها، فقد أفرد الإمام الشافعى فى كتابه «المبسوط» فى الفقه بابًا دعاه كتاب «الإمامة» وبذلك اعتبر هذا الموضوع جزءًا من الفقه بينما تحدّث عنها علماء الشيعة فى علم الكلام وأخضعوها إلى قواعد وأدلّة فى الجدل العقلى وانتهوا بها إلى أحكام مقرّرة كنظيراتها من مسائل هذا العلم.

وفى إحلالها من الطائفتين هذا الموضع دليل على مدى الخلاف بين الطائفتين فى هذا الموضوع وليس من الناحية السياسية باعتبار الإمامة رمزًا للحكم فقط وإنما من الوجهة العلمية الدينّية كذلك، وإشعار بمقدار صلتها بالدين وأنها أعلق به من السياسة. فالخلافة صارت بعد الاستدلال والمحاجة ثابتة فى «على» وأبنائه وأنهم معصومون بنظر الشيعة وإن كان الخروج على الإمام الجائر واجبًا عندهم أيضًا بينما هى عند الشافعية خاضعة للاجتهاد وذوى الرأى كما تخضع قواعد الشريعة الأخرى إذا

توافرت لدى المجتهد أصول الفقه وبلغ مرحلة القدرة على استنباط الأحكام وتطبيقها.

فالإمامة رتبة وإن كانت أقل درجة من النبوة ولكنها أرفع منزلة من الخلافة بنظر الشيعة، وهى ـ كما يوحى لفظها من معانٍ ـ بحث فى الرئاسة العامة والاستدلال على ضرورتها فى الحياة لتنظيم شئون الناس وإصلاح أمورهم، لذلك أطلق الشيعة على تلك الدراسة اسم «الإمامة» وعلى ـ على بن أبى طالب ـ اسم «الإمام» ولعلّ فى لفظى الإمام والخليفة بعد الرجوع إلى مصادرهما فى اللغة وملاحظة مناسبات استعمالهما ما يشعر بهذا الفرق.

ومثل هذا الفرق بين الإمامة والخلافة هناك فارق بينهما وبين «المَلِكْ» الذى يستعمل فى تاريخ القرن الرابع والخامس كثيراً بمعنى «السلطان» وإن اختلفا فى الدرجة. فقد نسبوا إلى الرسول حديثًا قال فيه: «الخلافة بعدى ثلاثون سنة ثم تصير ملكًا عضوضًا»[1]. وفى هذه المقابلة بين الخلافة والملك ما يشير إلى الفرق بينهما أيضًا، وقد لخّصه كتّاب المسلمين حتى لتشعر وأنت تقرأ ما كتبه ابن خلدون بعنوان (كيفية انتقال الخلافة إلى ملك): «القصد واضحٌ فى طبيعة كل منهما وأهدافهما، وأن من أبرز خصائص الخلافة تحرّى الدين ومذاهبه والجرى على منهاج الحق...»[2] فى حين نراها فى الملك القهر والتغلب. وعلى هذا الأساس اعتبر ابن خلدون دولة الراشدين وفريقًا من بنى أمية وأوائل بنى العباس خلافة وما عدا ذلك ملكًا.

لقد رأينا من الضرورى الإلماح إلى هذه الفروق بين الإمامة والخلافة أولاً وبينهما وبين الملك ثانيًا لنشير إلى أنها وما يتفرع عنها من أسئلة إنما كانت من المسائل التى ورثها عصرنا عن سابقه والتى كان لوزيرنا «النظام» فيها رأيه

(١) المواقف ـ شرح الجرجانى، جـ ٨ ص ٢٦٥.

(٢) ابن خلدون ـ المقدمة.

الخاص كما سنتبينه فيما بعد، وللمعارك الطائفية بين الحنابلة وغيرهم تأثيرها كما تبيّن لنا ذلك من قبل.

وقد ذهب بعضهم إلى أن الخلافة كالوزارة فرع من أصل فارسى ساسانى وزعم آخرون أنها مقتبسة من النظام الإمبراطورى الرومانى[1]. أليست تقاليد دار الخلافة تشبه فى هيبتها ورهبتها قواعد بلاط ملوك الفرس.. أليس إمبراطور الروم يستمد سلطاته من البابا كما يستمد سلطان المسلمين شرعيته وقوة نفوذه من الخليفة، فكان لابد أن تنتمى إلى واحد من تلكما النظامين القديمين. غير أن هذه مجرد افتراضات للربط بين الخلافة ونظيرها فى أمم مختلفة.

ولعلنا نجد مثل هذا بشكل أوضح عند الشيعة بالنسبة للإمام، ولكنه ـ مع ذلك ـ يختلف عن البابا، لأن الإمام بنظرهم هو الذى يصحّ أن يكون الخليفة وليس العكس. ولو تدبرنا الظروف المختلفة التى أحاطت بالعرب منذ عهد الرسول حتى العصر العباسى لعرفنا حقّا أن الخلافة نظام دينى فى جوهره، سياسى فى شكله نشأ نتيجة لتلك الظروف ولم يكن تقليداً لتنظيم سياسى سبق وجوده كما لم يكن إحياء لشىء يشبهه وإنّما كان وليد بيئته ونتيجة الحاجة إليه.. ولأجل أن نفهم مركز الخليفة من الدولة ينبغى أن نتساءل هل الخليفة موظف سياسى أو أنه حاكم دينى؟. لقد أشرنا آنفًا إلى أن الخلافة ـ بنظرنا ـ نظام دينى قبل أن يكون سياسيّا ثم جمع بين السلطتين فصار الخليفة بعد أن كان داعية واعظًا مرشدًا لما يجب على الإنسان نحو أخراه أن يجمع بين ذلك وما ينظّم له شئون دنياه.

فالخلافة كما يبدو لنا نظام إسلامى عربى والخلفاء الذين ظفروا بالسلطتين تنتهى سلسلتهم فى الخليفة هارون الرشيد ولذلك لانجد بعده من استطاع أن يفوز بالقدسية الدينية ولا بالاحترام السياسى وأصبح الخلفاء ألعوبة بيد القواد من الفرس والأتراك وتلاشت تلك الهالة السماوية التى كان يهابها الناس

(١) ابن خلدون ـ المقدمة ص ١٩٠.
(٢) ابن الأثير ـ الكامل.

ويخشون عواقبها واجترأ من بطانة الخليفة وممن استمد منه النفوذ من جرّه من يده وألقاه على الأرض[1] وأصبحت الخلافة بعد ذلك مشكلة من المشاكل السياسية بل مهزلة من المهازل الاجتماعية التى يتندر بها العوام وتلوكها ألسنة الرعاع.

ومن هنا وجد العلماء وقد يكون هذا بإشارة من الخلفاء أنفسهم ضرورة لتدارس الخلافة والعناية فى بحثها والكتابة عنها وبيان شرعيتها وصلاحها للمجتمع لتدارك ما أصابها من وهن وما اعتراها من خلل، ولكن فى الوقت نفسه كان بين الباحثين من يرى الفصل بين الساطتين الروحية والزمنية[2].

وعلى الرغم من اختلافهم فى ذلك وفيمن يكون هو الخليفة وكيف ينبغى أن يكون فقد تبلورت نظرية الخلافة وأصبحت فى نظرهم نظامًا يجب الاعتراف به والإذعان لتقاليده وأخذت تعود للخليفة بالاسم هيبته ورهبته وبخاصة فى نفوس العوام وذلك بسبب موجة الإعدام بالجملة[3]، وما نقلته دار الخلافة من رسوم عن البلاط الفارسى فى كيفية مقابلة الخليفة ووضع الحجب بينه وبين زائريه بحيث كان المحظى من كبار الدولة هو الذى يسمح له بتقبيل يد الخليفة أو رجله أو طرف من ردائه أما بقية الرعيّة فيكفيهم رفع الستار لرؤياه فى المناسبات فقط[4].

وبذلك تغيَّر نظام الخلافة فى العصر العباسى وأصبح الخليفة أشبه بالإمبراطور الفارسى ولكنه ليس هو، وأقرب إلى الإمبراطور الرومانى وليس شيئًا منه، وأضحى الفرق بينه وبين ما كان عليه فى عهدى الراشدين والأمويين واسعًا من وجوه عدة بقدر ما هو منه لأسباب معدودة حتى ليمكن القول بأن واحدًا منهما أو كليهما يصحّ أن يكون الأساس للنظام الخليفى وإذا أريد البحث

(١) أرنولد ـ الخلافة ص ٢ ط لندن الترجمة.

(٢) البيرونى.

(٣) أرنولد ـ الخلافة.

(٤) ابن الجوزى ـ المنتظم، حوادث ـ وابن الأثير ـ الكامل.

فيه أو عنه، فقد بدأ قريبًا إلى الملكية بعد وفاة الرسول والراشدين حتى استقر فى نهاية العصر الأموى. ثم بنى العباسيون خلافتهم على أساس من الدين ودعوى المساواة بين الأفراد والأجناس وحرية الآراء والمعتقدات ولكنهم لم يفوا بأكثر ما ادعوه فجعلوا الخلافة وراثية كما كانت من قبل.

لقد بذل العلماء كما أشرنا سابقًا جهودًا صادقة لدعم منصب الخلافة وتقوية مركز الخليفة مهما كانت دوافعهم لذلك فقد بحث الماوردى المتوفى سنة ٤٥٠هـ وغيره من أعلام القرن الخامس النظام الخليفى من الوجهة النظرية البحتة بما نستطيع أن نستنتج منه تأييده التام لضرورة بقاء الخلافة بينما كان معاصره البيرونى (١٠٣١م - ١٠٧٥م) قد اعترف بحقيقة الوضع الراهن وأبان عما بقى فى أيدى الخلفاء من سلطة تتعلق بالدين والعقيدة فحسب وعلّل لذلك بعدم قدرة الخليفة على ممارسة القضايا الدنيوية[1].

ثم جاء «النظام» فى الوقت نفسه فأخذ برأى الماوردى بوجوب الخلافة وعاضد مذهب البيرونى فيما بعد واعتقد بضرورة بقاء نظام الخلافة كمنصب روحى فقط، والجمع بين السلطتين الروحية والزمنية مما يضعف مركزه ويقضى عليه.

ومن أسّس على هون يكون مصيره الضعف ثم الزوال، عاجلا أم أجلا وهذا ما سنراه فى العناوين التالية:

١- ضعف الخلافة العباسية: علله وأعراضه:

وبعد جهد تحقق لبنى العباس حلمهم الذى راودهم طويلاً والذى هدروا من أجله الدماء الطاهرة[2] وأزهقوا الأرواح الزكيّة وتربعوا على عرش الخلافة باسم العرب من آل محمد وأبناء عمومته وكان أشد من خافوه أبناء على وهم سلالة النبى وأكثر ما حذِرُوه هم العرب لميل بعضهم إلى العلويين، وبعضهم الآخر

(١) البيرونى.

(١) انظر الأصفهانى ـ مقاتل الطالبيين.

إلى الأمويين فقربوا إليهم الفرس واعتمدوا عليهم فى مناهضة العرب وحربهم فكان وزيرهم الأول أبوسلمة الخلال وهو من العرب اليمانيين أول ضحية يلقى حتفه، ووجد هؤلاء من هذه السياسة تنفيسًا عن رغائبهم المكبوتة وآمالهم المحبوسة فأقبلوا بكل قواهم وأحاطوا بالخلافة حتى خشيهم أوائل الخلفاء؛ فشنوا عليهم حملات متوالية بدأت بقتل أبى مسلم الخراسانى بأمر من الخليفة المنصور نفسه، ثم لحقتها مجزرة البرامكة بإشارة من الرشيد.

ثم جاء المعتصم ابن المأمون فلم يجد نفعًا فى قتالهم إذ استفحل أمرهم وقويت شوكتهم بعد تقريب أخيه المأمون لهم؛ فأتى بعنصر جديد وهو الأتراك لإيقاف كل حركة داخلية من الفرس والعرب جميعًا فحنق الفرس على الخلافة وتربصوا الدوائر للإيقاع بالخلفاء عند أول فرصة سانحة ولكن الأتراك سرعان ما طغوا وتجبروا وعاثوا فسادًا فى بغداد حتى شكاهم الناس وارتفعت أصوات المستغيثين حتى اخترقت أسوار دار الخلافة وبلغت مسامع الخليفة وتردد على ألسنة الناس لفداحة الظلم الذى لحقهم: أى شئ هذا نحن فى بلاد الديلم أم فى يد الأتراك حتى ملكهم الديالمة والأتراك[٢] فلم يجد الخليفة المعتصم خلاصًا منهم غير إبعادهم عنها فبنى لهم معسكرًا فى سامراء وبعد وقت قصير أصبحت عاصمة الخلافة.

وكان أن تعاون هؤلاء وأولئك على هدم الخلافة وناصرتهم طوائف أخرى تحدوها نزعات مذهبية وأخرى عنصرية وقبلّية وتكاتفوا جميعًا على إضعافها والعيش على أكتافها، وإلاّ فعلى أنقاضها.. وكان من مآسى الفرس والترك ما يندى له جبين الإنسانية خجلاً ويقشعر لهولها وفظاعتها جزعًا ورعبًا. وكان لابدّ أن يشركوهم الحكم طواعية أو كرهًا فصار للفرس الوزارة وللترك الإمارة وقيادة الجيوش فى أغلب الأحيان وقد يكون لهم الملك والسلطان فى بعض الأزمان والبلدان.

---

(٢) نشوار المحاضرة ص ١٥٧.

وقد كان على المعتصم أن يحذر هذا العنصر الدخيل وألاّ يتجاهل الأسباب التى دفعته لاختياره والاعتماد عليه فى الدفاع عن الخلافة دون غيره وأن يحافظ على التوازن بينه وبين العناصر الأخرى الوافدة والأصيلة لأنها لا تمت إلى الخلافة العربية برابطة دم ولا بصلة دين إلاّ منذ عهد قريب لم يستطع بعد أن يبدّل من أطماعهم أو يغيّر من روح الانتقام لماضيهم. . . وقد كان عليه وعلى الخلفاء من بعده ألاّ يتغافلوا عما فعله الخلفاء من تنكيل وقتل وما صنعه الفرس بالخلفاء من إذلال ومهانة وعزل. وبتجاهلهم وتغافلهم فقد مهّد أتراك المعتصم لدولة السلاجقة كما مهّد خراسانية المأمون لملكة آل بويه وقد ورث أولئك عن أسلافهم في غزنة وبغداد فنون الحرب والاستعمار على أساس العمران كما ورث هؤلاء عن أجدادهم ثقافة حضارية فى التنظيم الإدارى.

لعب الأتراك والفرس دورًا طويلاً وخطيرًا في سياسة الخلافة العباسية إلى أن قضيا عليها فقد كان لكل منهما فترتان على التعاقب، فترة صراع مع الخلفاء والعناصر المنافسة لها وأخرى فترة استيلاء على الحكم. لقد رافق الفرس تأسيس الخلافة العباسية وعاضدوها، فكان ما كان من أمر أبي مسلم وآل برمك مع المنصور والرشيد، وكان لجنود الأتراك وقوادهم أثر لا يقل مرارة وقسوة خلال ثمان وخمسين سنة اضطر فيها الخلفاء السبعة في سامراء أن يخضعوا لإمرتهم وعبثًا حاولوا التخلص من استبدادهم وطغيانهم، ثم عاد دور الفرس من جديد بفتح البويهيين بغداد وقضوا أكثر من قرن شهد فيه الخلفاء أضعاف ما انتهى إليه الأتراك من جور واستبداد ثم أعقبهم السلاجقة بدخول طغرلبك بغداد سنة ٤٤٧هـ فشغلوا الدور الرابع الذى دام حوالى القرن من تاريخ الخلافة.

لقد كان الصراع العنيف المتواصل بين الموالى والأتراك فى العاصمة وخارجها من أجل التغلب على المراكز المهمّة والاستيلاء على القصر الخليفى من العوامل التى ساعدت على إضعاف الحكومة ومهدت لظهور الدويلات المستقلة فما هي أهم تلك العوامل وما أشهر تلك الدويلات؟ . .

أ) **التوريث**: إن فى استخلاف معاوية لابنه يزيد وطلبه أخذ البيعة له فى حياته

بدعة جديدة فى نظام الخلافة الذى هو أقرب إلى الجمهورى الانتخابى منه إلى الملكى الوراثى إذ قضى بهذه البدعة على حق الشورى فى اختيار الخليفة وفتح باب المنازعات بين أبنائه وأخوته. وقد ورث العباسيون عن الأمويين نظرية حصر الملك فى الأعقاب ولقيت منهم على سوئها تقبّلاً وتأييداً متناسين ما كان عليه الخلفاء الراشدون من قبلهم وبذلك لم يحتاجوا إلى عناء كبير لتثبيت هذا فى نفوس الناس بعد أن صار قاعدة مألوفة وكل ما فعلوه هو الدعوة لأن تكون فى نسل العباس عم النبى بدلاً من أبناء فاطمة وعلى.

ومما يلفت النظر فى بدعة التوريث أن يتغافل بنو العباس ومن قبلهم بنو أمية وهم من السنّة أن الخلافة بدأت حياتها بالاختيار[1] والترشيح ولا تنعقد إلاّ بموافقة الأكثرية،[2] وأنه لا يقرّ التوريث والتعيين بالإيصاء سوى الشيعة حينما جعلوا من الخلافة إمامة واجبة فى الدين عقلاً وشرعًا مثلما كانت النبوة واجبة فى الفطرة عقلاً وسمعًا[3]..

ومن الغريب أن الخلافة العباسيّة قد استغلّت مذهب الشيعة فى التوريث والوصية للأبناء خلافًا لإجماع أهل السنة. وأشدّ منه غرابة أن يتجاهل العلماء مسألة الاختيار وتحل بموضعها مسألة الوراثة وولاية العهد ومشكلاتها المحتملة الوقوع؛ فيفرضون لها الفروض ويضعون لها الحلول كأنها قضية مسلّمة ويتخذون لها من سيرة خلفاء الأمويين والعباسيين وتوريثهم الخلافة لأبنائهم نموذجًا لصحتهاوسلامتها، فبعد أن كانت الإمامة موضع بحث العلماء وزعماء الطوائف من حيث: توافر الشرائط فى الإمام وما هو موقف الأمة منه إذا اجتمعت فى اثنين، وما هو الإجماع، وهل يجوز أن ينعقد لاثنين فى وقت واحد[4]، وتقديم المفضول مع وجود الأفضل، إلى آخر ما هنالك من أسئلة، اتخذت المسائل صيغة أخرى مثل: هل يجوز العهد بالخلافة لاثنين فأكثر؟ وهل يصح ترتيب

(١) عبد القاهر البغدادى ـ أصول الدين ص ٢٨٤.
(٢) الغزالى ـ الرد على الباطنية ص ٦٦.
(٣) الشهرستانى ـ نهاية الإقدام ص ٤٨٤.
(٤) البغدادى ـ أصول الدين ص ٢٧٤.

الخلافة بينهما إذا نصّ على ذلك، ثم هل يحق للإمام بالترتيب حسب الوصية أن يخرج عليها فيعهد لآخر. ويجيب الماوردى على ذلك كله أنه لا يجوز أن يكون للأمة إمامان فى وقت واحد وإن شذّ قوم فجوّزوه[1]. وعلى هذا الرأى إمام الحرمين حيث أجاز العقد بشرط بُعْد المدى وشيوع النوى[2]. ولعلّ فى فتوى الجواز اعترافًا بالأمر الواقع حيث انقسم العالم الإسلامى آنذاك إلى ثلاث خلافات. . وتأثر «النظام» خطى علماء عصره وصار ينادى ليس بإيراث الخلافة فحسب وإنّما شمل اعتقاده وراثة السلطنة والوزارة أيضًا كما سنرى ذلك فى موضعه من البحث.

قد يقال: إن التوريث كان نتيجة لشرط النسب بأن يكون الخليفة فى قريش ومع أن هذا الشرط موضع خلاف بين الطوائف المسلمة إلاّ أنه كان من الممكن التوفيق بين هذا الشرط وعدم التوريث باختيار أهل الحل والعقد أفضل أعضاء هذه الأسرة. وقد تكون دعوى الخلافة فى قريش لإجماع الصحابة عليها يوم السقيفة لتدين لها العرب ويخضع لها غيرهم من الأمم فإن صلاحها فى ذلك العصر لا يتعارض وسوء نظرية وراثة الملك فى الأعقاب من بنى أمية أو بنى العباس. . فقريش ـ كما نعلم ـ من أكبر قبائل العرب ولذوى الرأى من كبار الأمة أن يختاروا من البارزين فيها أحسنهم خصالاً وأكثرهم نفعًا وأوفرهم لشروط الخلافة لا أن يعيّن الخلفاء صغار أبنائهم وضعاف أحفادهم فيدبّ الوهن فى جسم الخلافة ويحلّ الانشقاق والانقسام بين الحاكمين ويظل الأمراء فى شاغل عن المصالح العامة بأمورهم الخاصة وتبقى الشعوب مشغولة بحزازتهم وخصوماتهم.

ب) التفويض الإلهى: أضاف العباسيون إلى بدعتهم الوراثية بدعة منقولة لم تكن معروفة للعرب من قبل وكانت نتيجة لاتصالهم بالفرس، وهى بدعة ربط

(١) الماوردى ـ الأحكام السلطانية ص ٧.

(٢) الجوينى ـ الإرشاد إلى قواطع الاعتقاد ص ٤٢٥.

الأسرة الحاكمة بالسماء وأن حكمهم بتفويض إلهي لا حُق للناس في رفضه أو الاختيار فيه. حكي عن المنصور أنه قال في إحدى كلماته: «إني سلطان اللّه في أرضه»[1]... وكان إذا خاف الخلفاء بطش الرعية وانقلابها على الحكم أمروا مناديهم يدعو بصوت جهوري في الميادين والأسواق: «يامعشر المسلمين إن من خالف خليفة رسول اللّه فقد خالف رسول اللّه ومن خالف الرسول فقد عصى اللّه وخرج على المسلمين جميعًا واختار النار»[2].

بهذا المنطق الدخيل الذى يستهوى العوام وينفذ إلى نفوسهم ويوقد الحماس في قلوبهم كان يتذرع الخلفاء إذا ما أحسّوا بأركان الخلافة تتزلزل وبقواعد عروشهم آيلة للسقوط، ثم يشككون العامة في مترعم الثورة ضدهم فيتهمونه بالباطنية ومراسلة خلفاء المهدية وعمله لعزل الخليفة العباسى فينجذب الدهماء إلى صفوفهم.

وبهذا كان الخلفاء والأمراء يحكمون باسم اللّه لأنهم يمثلون الدولة بأسمى معانيها[2]، كما يحكم القضاة اليوم باسم الملك ويشرّع النواب باسم الأمة. وبذلك تفشّت نظرية الحق الإلهي وأحاطت الخلفاء بهالة من التقديس والتعظيم كالتي كانت عند الفرس تجاه ملوكهم. واستمرت مسحة التقديس هذه تظهر وتختفى حتى العصر السلجوقى فنرى من آثارها الباقية عادة تقبيل الأرض بين يدى الخليفة القائم بأمر اللّه كما فعل طغرلبك عندما تشرَّف بالمثول بين يديه. مثلما بقيت فكرة التوريث هذه على علاتها تسير مع الزمن على الرغم مما تحوطها من مشكلات وإراقة دماء حتى عهد الخليفة المذكور نفسه حيث اهتزت جدران دار الخلافة هلعًا وخوفًا من فقد الوارث الطفل (عدة الدين) بسبب انقلاب البساسيرى ونفيه الأمير ووالدته إلى «الحديثة»[3].

ومادام خلفاء بنى العباس قد أحاطوا أنفسهم بنظرية التفويض الإلهى فقد

(١) نظام الملك ـ سياستنامة.

(٢) فلهوزن ـ الدولة العربية ص ١٤.

(٣) الحديثة: مدينة عراقية قديمة.

اتخذ سلاطين السلاجقة لقب «ظل الله فى الأرض»[1] تشبهًا بهم ومشاركةً فى الحكم لهم. واعتقد «النظام» بصواب هذه النظرية ودعا إليها فى كتابيه «السياسة» و «الوصايا» وبدت على صلاته بالخليفة والسلطان مظاهر التقديس والاحترام حيث تتمثل فى شخصهما السلطتين الروحية والزمنية.

مما نجم عن بدعة توريث العرش وفكرة تفويض السماء نتائج اجتماعية سيئة ظهرت بوضوح خلال عهد ضعف الخلافة بالذات كما كانت من أسباب ضعفه: فقد أثارت روح البغضاء والكراهية بين أعضاء العائلة المالكة وقويت أعمال التنكيل من أجل ولاية العهد كما اضطرت الخليفة ـ بدافع الحرص على حصر العرش فى أبنائه ـ للتفكير الشديد بمن يخلفه فإذا لم يجده عمل المستحيل فى سبيل ذلك فتتعدد زوجاته دون مبرّر وتكثر مطلقاته دون مسوّغ وغالبًا ما يلجأ إلى فقهاء زمانه يسترضيهم لإصدار الفتيا بجواز تصرفاته المشينة لأن آذان الشعوب صاغية وإن كانت جاهلة وإحساساتهم مرهفة وإن كانت معطَّلة.

ومما نتج كذلك عن توريث السلطان فى الأعقاب أن حدث التغلب على المنصب من وزرائهم وحاشيتهم، وسببه فى الأغلب ولاية صبى صغير أو مضعّف من أهل البيت يترشح للولاية بعهد من أبيه أو بترشيح ذويه[2] فينصرف هؤلاء إلى حياة اللذّة والدّعة والترف، ويتصرف أولئك القائمون على شئون الدولة تصرف المالك لها، ثم ينتهى هذا الدور بالصراع بين السلطان والمستبدّ به عندما يكبر ويثأر لتاجه المغتصب، ويحدث الشقاق وتسيل الدماء.

واستمرت مآسى وراثة الملك فى الأصلاب تتمثل على عروش الملوك حتى عصرنا الحاضر، وبشكل أدعى إلى المقت وأبعث على الحزن، وبخاصة بعد أن التزموا بمنع تعدد الزيجات مهما كانت الأسباب.

جـ) الصراع بين الخلفاء والوزراء: ومما أضعف الخلافة، والوزارة معًا ـ ذلك

(١) نظام الملك ـ سياستنامة.

(٢) ابن خلدون ـ المقدمة ص ٩٠.

الصراع العنيف بين الخلفاء والوزراء الذى يخفّ حينًا ويشتد أحيانًا، ومن أجل المال تارة وبسبب النفوذ أخرى، فالخليفة يقيل وزيره على أسوأ حال ويصادر أمواله، وقد يلقى به فى غياهب السجن، ثم يسفك دمه فى النهاية إذا ما أوجس خيفة على سلطانه أو عجز عن تلبية ما يريده من هدايا ومال. والوزير يسعى لعزل الخليفة ويتآمر على خلعه إلى أن يطيح بعرشه ويتوّج من يريده، ولا يريد عادة ـ وهذا هو الغريب فى الموضوع ـ من يتوافر فيه شرائط الحنكة فى السياسة أو الحذق فى معالجة عويص الأمور بل ربما كانت شريطته الخلو من ذلك، فالخليفة ـ المقتدر ـ يستوزر ذوى الثراء من أجل مالهم، والمتوكل يملّ استيزار الشيوخ، والوزيران «ابن مقلة والبريدى» يخرجان على الخليفة ويحاربانه.

د) الحروب والتوسع: ومن عوامل الضعف كذلك تلك الحروب المستمرة بين الخلافة وإمبراطورية الروم، الأمر الذى جعل الخلفاء فى قلق وحذر دائمين خوفًا من هجومهم، وفى ذلك ما فيه من حرص على جمع المال لتموين الجيوش واستخذاء وخضوع أمام القواد من أجل دفاعهم عن العرش والبلاد، وكان آخرها موقعة ـ عمّورية ـ أيام المعتصم.

ولم تنته هذه الحروب الخارجية حتى بدأت ثورة الخوارج والعلويين والقرامطة فى الداخل وكان منها ما استمر سنين عديدة حتى قضى ـ الموفق بن المتوكل ـ فى قتال الزنج أربعة عشر عامًا بين حرب ومهادنة إلى أن أخمد ثورتهم، ولم تمر السنون حتى اقتصر الخلفاء على مملكة العراق فحسب.

ثم ذلك التوسع الهائل ـ وبه نكتفى أخيرًا ـ والذى يصفه المقدسى بأنه لم يعدّ من الميسور أن تقطع أرض الخلافة من الشرق إلى الغرب بأقل من عشرة أشهر، ولم تعدّ وشائج الدين تربط بين الأجناس المختلفة بعد أن انتشرت المذاهب المتناقضة، ولا تجمع بين الناس صلات اللغة بعد أن تبلبلت الألسن وتكاثرت اللّهجات، فكان من الطبيعى بعد هذا أن اشتدّ الخلاف فى النزعات والمذاهب وقوى الخصام فى الأهواء والمشارب وازداد التباين فى الأجناس واللغات.

وكان لابد من تفكك عرى تلك الوحدة المترامية الأطراف واستقلال بعض الأجزاء النائية عن المركز. . . وكان لزامًا أن تنشأ دويلات صغيرة تتسع وتقوى أحيانًا وتصغر وتضعف أخرى، تبعًا لتقلبات الظروف والأحوال السياسية والاجتماعية. . . إلى أن أصبح يقتسم تلك الرقعة الواسعة ثلاث خلافات توزعت كل واحدة منها فى قارة، وامتد نفوذها إلى ما جاورها من مناطق وأقاليم هى: الخلافة العباسية فى آسيا وعاصمتها بغداد، والخلافة الأموية فى الجنوب الغربى من أوربا وحاضرتها قرطبة من بلاد الأندلس، ثم الخلافة الفاطمية فى أفريقيا ومركزها القاهرة. . وحتى أصبحت الخلافة المركزية الأم تبتطن عدة دويلات. . وبهذا صار لكل واحدة من هذه وتلك خليفتها وسلطانها أو ملكها، وأخطرها ثلاث دول هى: البويهية فى قهستان من بلاد الجبل - الديلم - ثم الدولة الغزنوية فيما وراء النهر، والسلجوقية فى خراسان. .

ومما يجدر بنا ملاحظته أنه فى الوقت الذى كانت فيه الدولة البويهية والسلجوقية تمثلان العنصر الفارسى والتركى فى شرق الخلافة، كانت الخلافة الأموية والفاطمية تمثلان الجنس العربى فى غربها، وعلى الرغم من أن النزاع بين هذه جميعها يشتدّ فيتحول إلى حروب دامية، لم نجد بينها خلافة غير عربية أو غير قرشية بتعبير أدق.

وكما كان ذلك التوسع المفرط ضروريًا فى ذلك الحين لبقاء الحكومات واستمرار نفوذها، فقد كان طبيعيًا كذلك أن تنقسم إلى أقاليم يحكمها الولاة والأمراء. . . وكانت نتيجة ضرورية أيضًا لهذا وذاك أن تقوى تلك الولايات، وأن تزداد قوة كلما ضعفت الحكومة المركزية، ومن هنا نشأت دويلات مستقلة كانت تتوسع على أنقاض جاراتها، فيفوّض الخليفة إلى أمرائها تدبير شئونها ويوكل الأمر أو الحكم إلى المستولين عليها[1] وكنتيجة لذلك كله ظهرت الدويلات الحمدانية فى الشام - حلب - والأخشيدية فى مصر - القاهرة -.

(١) أبو يعلى ص ١٧ - والماوردى ص ٢٤، ثم يضيفان قولهما كالذى عليه أهل زماننا.

وكان لخراب طرق المواصلات التى أصبح من العسير على الدولة اصلاحها لطول المسافات التى تخترقها، أثر كبير فى إيجاد تلك الإمارات ثم استقلالها، «إذ بانقطاع السبل وخراب كثير من البلدان وذهاب الأطراف وغلبة الروح المفردية وغيرها من الممالك على كثير من ثغور الإسلام[1] حصل هذا الانقسام».

بهذا انتهى القرن الرابع وليس للخليفة إرادة فى عزل أو تنصيب، فالسلطان محمود يولّى خاقان سمرقند[2]. واستقلّ فى المملكة الإسلامية المترامية الأطراف أمراء شبههم أحد المؤرخين بملوك الطوائف الذين خلفوا الإسكندر بعد مقتل الملك «داريوس» وملك بابل إلى ظهور أردشير بن بابك[3]. وظهرت على تصرفاتهم وطرق معاشهم مظاهر الحياة الملكية الجديدة بما فيها من بذخ وترف وسيطرة وحاشية وجند، وانتزعوا من الخليفة سلطانه حتى لم يبقوا له سوى الاعتراف بالخلافة والدعاء للخليفة فى خطب الجمع والأعياد.

وبلغ من ضعف الخلافة أن كان الأمراء يقدّمون إلى الخليفة الهدايا فى كل سنة ويطلبون منه تقليداً بالولاية، وكان الخلفاء يعوّضون ملوك الأطراف بما يناسبها أو يفضل عنها لحفظ الناموس الظاهر وليكون لهم فى البلاد السكة والخطبة حتى صار يضرب مثلاً لمن له ظاهر الأمر دون باطنه أن يقال: قنع فلان بالسكة والخطبة، يعنى قنع بالاسم دون الحقيقة..

وقد يغزو الأمراء عاصمة الخلافة فيدخلونها عنوة ويتلقى أميرها الجديد البراءات والخلع والألقاب اعترافًا بسلطانه وإيذانًا له بحمايته، وكان معظم تلك الألقاب يشير إلى هذه الحماية للدين أو الدولة، كما كان بنو بويه أولى الأسر الفارسية القويّة التى عنيت بحمايتها للخلفاء وشعرت بحمايتها هذه فضل سبق

(١) المسعودى: التنبيه والإشراف ص٤٠٠.

(٢) المسعودى ـ مروج الذهب جـ ١ ص٢٠٦ وجـ ٢ ص ٧٣ ـ والتنبيه والإشراف ص٤٠٠.

(٣) ابن طباطبا ـ الفخرى ص٢٨.

على غيرها من الدويلات الأخرى الناهضة[1]، وخرجت الألقاب عن سيطرة الخلفاء فصار الأمراء والوزراء يمنحونها من يشاءون إلى أن يصل الخبر إلى الخليفة فيؤيده، كما حدث مثل هذا للسيد «المرتضى» المتوفى سنة ٤٣٦هـ، حيث منحه الوزير الأسعد بن محمد بن عبد الرحيم لقب ـ علم الهدى ـ على أثر رؤيا شهدها فى منامه أثناء مرضه سنة ٤٣٠هـ، ولمّا بلغ الخليفة ـ القادر باللّه ـ ذلك كتب إلى المرتضى به[2].

ولسنا ندرى كيف هيأت الظروف بين الفينة والاخرى ملوكًا فى الأطراف لإنقاذ الخلافة عند ضعفها وتفاقم أسباب محنتها وكان من هؤلاء الملوك من طمع فى الخلافة وسعى لإزالتها، فقد أشار «النظام» فى كتابه «السياسة» إلى أن ـ يعقوب ابن الليث الصفار ـ سنة ٢٣٧هـ، مؤسس الإمارة الصفارية قد استولى على نيسابور دون إرادة الخليفة وكان يحاول القضاء على الخلافة العباسية فى عهد الخليفة المتوكل بعد أن قضى على الطاهريين[3]. واستمرت الأحداث قاسية مريرة بينه وبين الخليفة «المعتمد» حتى مات وبايع الجند أخاه ـ عمرو ـ ولولا بقية من نفوذ الخلفاء استغله الخليفة فى عزل أخيه ـ عمرو بن الليث ـ وتولية محمد بن طاهر سنة ٢٧١هـ لقضى على الخلافة.

ويروى لنا «النظام» قصة طويلة أخرى فى هذا الموضوع حدثت بين الخليفة القادر والسلطان محمود[4] اتخذ فيها لنفسه ألقابًا ـ يمين الدولة وتاج الملّة بعد

(١) أرنولد ـ الخلافة.

(٢) الخرنسارى ـ روضات الجنات جـ ٢ ص ٣٨٢-٥٦٤.

(٣) نظام الملك ـ سياستنامة ـ وابن الأثير ـ الكامل.

(٤) كان السلطان محمود واليًا على خراسان من قبل آلى بويه سنة ٩٩١م ولكن السامانيين لم يعترفوا به، ثم ارتقى العرش سنة ٣٨٩هـ/ ٩٩٩م وتسلم من الخليفة لقب يمين الدولة وأمين الملّة وكهف الدولة والإسلام، وتاجًا وبراءة لحامية خراسان واتخذ لنفسه لقب سلطان (ابن الأثير ـ الكامل ص١٠٣) وفى سنة ١٠٢٦م استقبل رسلاً من الخليفة يحملون له براءة ملكية تخوله حكم الولايات التي غزاها واحتلها وتمنحه ألقابًا جديدة له ولأولاده ولأخيه يوسف وصار الوارث الحقيقي للسامانيين والحاكم المطلق على الشرق بأسره إلى أن توفى سنة ١٠٣٠م (بارتولد - تركستان ص ٢٨٦).

جهد وبذل، وتهديد بإنشاء خلافة أخرى في الأطراف حصل فيها على فتوى من القضاة[1]. ومن المحتمل ألاّ يكون لهذه الرواية التى سردها «النظام» سند تاريخى[2]، ولكنها على كل حال تدلنا على ضعف الخلافة وتغلّب ملوك الأطراف من ناحية وعلى أهمية الألقاب وخطورتها بنظر الحكام آنذاك.

وكان كلما استشعر الخلفاء جفوة أو إعراضًا من الملوك والسلاطين أو بلغت مسامعهم أنباء مريبة عنهم استدعوهم لأداء يمين الإخلاص والطاعة، وكذلك كان يفعل السلاطين أنفسهم إذا خشوا أمر قوادهم وعمّالهم، فقد جمع الوزير ـ أبو القاسم المغربى ـ وجوه الأتراك والمولويّة ليحلفوا لمشرف الدولة، «ونجد مثل هذا حدث «لجلال الدولة» البويهى حيث حضر أمام الخليفة القادر وحلف له على المخالصة والطاعة ولجنوده على الوفاء»[3].

ويذكر لنا «النظام» فى وصاياه قصة حدثت فى بغداد عندما وافق الخليفة على مصاهرة السلطان ـ ملكشاه ـ ورضى بكتابة عقد الزواج فدعا حينئذٍ الأكابر والأشراف العرب منهم، والعجم لحضور مجلسه فاجتمع منهم عدد كبير، لم يجتمع مثله فى أى عصر من العصور، وأمر بذهابهم إلى دار الخلافة لطلب رضا الخليفة وإعلان الخضوع له والطاعة[4]. وكان على رأس هذه الوفود وزيره «نظام الملك» فلم يصلوا عتبة دار الخلافة حتى نزلوا عن خيولهم وساروا على أقدامهم مبالغة فى الاحترام فجاء رسول الخليفة يقول إن أمير المؤمنين أمر أن

---

(١) النظام ـ سياستنامه ص ١١٦ (الترجمة).

(٢) بارتولد ـ تركستان ص ٢٧١.

(٣) المصدر السابق جـ ٨ ص ٢٠.

(٤) نظام الملك ـ الوصايا ص ٣٦-٣٧.

يبقى «النظام» راكبًا، فكان الوحيد بينهم وعندماركب وبلغوا سّدة الخليفة أَمْرَ فوضعوا له مسندًا جلس عليه والعظماء جميعًا وقوف بين يديه، ولما قدّمت الخلع كانت خلعة «النظام» مطرّزة باسم ـ الوزير العادل العالم نظام الملك رضى أمير المؤمنين[1].

ومن غريب ما يلفت النظر ـ وليس بغريب فى الواقع ـ أن تنشأ معظم تلك الدويلات الكبرى الثلاث التى تهدد الخلافة بالخطر من إيران وأن يكون مركز الصراع منطقة خراسان، فهو الإقليم الذى ترجح كفة المستولى على حاضرته ـ نيسابور ـ ومنه غزت الدويلات السامانية والبويهية والغزنوية ثم السلجوقية دار الخلافة، وكان أول من هدّد عاصمة الخلافة فى خاتمة هذا العهد هو السلطان «محمود» بعد أن تم له إخضاع خراسان وولّى عليها أخاه ـ نصرًا ـ وجعل مقره نيسابور، فقد استولى عليها قبله الصفاريون أولاد يعقوب بن الليث وقضوا على الإمارة الطاهرية ثم استولى عليها السامانيون الذين داموا فى الحكم من سنة ١٧٠هـ إلى أن قضى عليهم آل سبكتكين قبيل نهاية القرن الرابع الهجرى.

وفى هذا ما يشعرنا بأن الأقوام الذين دخلوا تحت سلطان العرب ـ على كثرتهم- إلاّ أنهم لم يفقدوا منزلتهم، كما أن العرب لم يقضوا عليها كما فعلت الجرمانية فى أوربا والمغول فى آسيا[2] والدولة العثمانية لتتريك العرب فى الجزيرة والولايات التابعة لها حتى قامت الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤م.

وبذلك خفّت كفة بغداد فى الميزان السياسى وحلّت محلّها نيسابور وأصبهان والرى من أعمال خراسان، وصار السلطان إذا استولى عليها خضعت له بغداد دون دفاع أو مناهضة، حتى صار السلاطين يتسابقون للاستيلاء عليها لأنه بنظرهم مقياس لقوة الدولة الجديدة، ولم لا تكون كذلك وهى التى أقامت الخلافة العباسية على أشلاء الدولة الأموية

(١) نظام الملك ـ الوصايا ص ٣٦، ٣٧.

(٢) بارتولد ـ الحضارة الإسلامية ص ٢٨ ترجمة حمزة طاهر.

وأمدّتها بالعتاد والجند وأسهمت فى القيادة والحرب طمعًا فى القضاء على عروبة الحكم واستعادة مجد الفرس القديم.

لقد رأينا من قبل أسباب ضعف الخلافة وبعض صوره والأدوار التى مرّت بها هزيلة سقيمة الى أن لبست أثواب العافية وعاد إلى مخالبها الزهو والانتعاش فى عهد القائم ثم المقتدى من الخلفاء بفضل سلاطين السلاجقة طغرلبك وألب أرسلان وملكشاه. وقد شهدنا ونحن نستعرض دور الانحلال أسماء دويلات تطلّعت لحياة الاستقلال وتناثرت هنا وهناك كان منها الطاهرّية والصفارية والسامانية وكان آخرها وأهمها دولة آل بويه التى تكاد تكون الوحيدة التى استأصل شأفتها السلاجقة فى هذا العهد، إذ بقيت هناك دويلات وإمارات لا تقل أهمية عنها ولم تستطع القضاء عليها، وإنما اكتفت بمهادنتها أحيانًا ومحاربتها أخرى والقناعة بما تقدمه من رسم للخزينة العامة كالدولة الغزنوية التى بقيت تُناهض السلاجقة منذ ظهورهم إلى أن قضت عليها الدولة الغورية سنة ٥٧٩هـ وكامارات المروانية[١] والعقيلية[٢] والمزيدية[٣].

وقد ظلّت هذه موضع قلق واضطراب للخلافة وسلطنة السلاجقة معًا خلال القرن الخامس الهجرى وقد اتخذت من تنافس الخليفتين العباسى والفاطمى وسيلة للسيطرة واستمرار النفوذ وانتهزت الأخيرتان فرصة وثبة البساسيرى فشايعتاه فى حربه ومناصرته حتى اضطر السلاجقة لمالأتهم وإغداق الهبات والألقاب على زعمائهم.

وهكذا لم يطلع القرن الخامس الهجرى إلاّ وقد اجتاحت العالم الإسلامى شرقًا وغربًا زوابع عنيفة من الفتن المذهبية والأوبئة الفتّاكةوالحروب الدامية

(١) نسبة إلى مروان بن دوسنك الكردى الحميدى نشأ فى ديار بكر بعد بنى حمدان سنة ٣٨٠هـ وانتهت على يد الوزير فخر الدولة محمد بن جهير سنة ٤٧٨هـ (انظر فى تاريخها: ابن خلكان ـ الوفيات جـ ٢ ص ٥٧ والجبرتى: جـ ٤ ص ٣١٥:٣٢١ وخلاصة تاريخ كردستان جـ ٢ ص ٩٥ : ١٢٥). ومن أشهر أمرائها: أبو نصر أحمد بن مروان الذى بقى فى الحكم ٤٢ سنة والذى تآمر سنة ٤٥٢هـ.

(٢) وكانت قبائل عقيل تسكن الموصل وغرب الفرات فانفصلت عن الخلافة بين سنة ٣٨٦هـ إلى ٤٨٩هـ.

(٣) وكان بنو أسد يسكنون منطقة الحلّة وقد انفصلت إمارتهم عن الخلافة بين سنة ٤١٤هـ إلى ٤٧٢هـ.

بسبب التعصب الدينى والنزعات القومية والطمع فى السيادة والنفوذ فشهد الثلث الأول من هذا القرن الخلافة الأموية فى الأندلس وهى تحتضر ثم تنقرض سنة ٤٢٢هـ / ١٠٣٠م بوفاة المؤيد بالله هشام بن الحكم ـ كما رأى الدولة البويهية تلفظ أنفاسها الأخيرة سنة ٤٤٧هـ/ ١٠٥٥م بمقتل الملك الرحيم ووزيره على يد طغرلبك ووزيره الكندرى... وتتمخض الأحداث عن ميلاد دولة جديدة هى دولة آل سلجوق.

٢- ميلاد الدولة السلجوقية:

ولو ألقينا نظرة شاملة على الجانب الشرقي من العالم الإسلامى وتدبّرنا أحوال الناس آنذاك لتبيّن لنا أن الوضع العام يبشر بميلاد دولة جديدة ولتبيّن لنا أن موضع الولادة سيكون فيما وراء النهر ومن آل سلجوق أيضًا: فقد كانت الخلافة فى بغداد وأمهات الدويلات معها كدولة آل بويه فى فارس وآل سبكتكين فى غزنة عاجزة عن تلبية آمال الشعوب التابعة لها فى الأمن والاستقرار فضلاً عن ضعف المستوى الاقتصادى وتعزيز الدين ونشر العلم.. تلك الأمور التى ترصّدتها عيون الناس وتطلّعت إليها أعناق المواطنين ولاسيما دعاة التجديد لبناء كيان إسلامى موحّد يقف ضد المغيرين من نصارى الروم فى الشرق ويصدّ زحف الباطنية من الفاطميين فى الغرب.

وكانت عوامل الإرهاص لظهور الدولة الجديدة تتسابق فى الأفق متدفقة داخل بغداد عاصمة الخلافة حيث يحيط بالخليفة نفر من ضعاف الفرس يملك وسائل الحول والطول فيسير الخليفة طوعًا لإرادته ويمتلك ما عجزت عنه الدويلات الأخرى من عناصر القوة والاستبداد. وكان الوضع فى العراق رديئًا من كل نواحيه حتى وصفه المقدسى بقوله: «إنه بيت الفتن والغلاء وإنه فى كل يوم إلى وراء من الجور والضرائب فى جهد وبلاء.. ثمار قليلة وفواحش كثيرة وموءن ثقيلة»[1].

(١) المقدسى ـ أحسن التقاسيم ص ١١٣.

وكانت عوامل قيام الدولة الجديدة تتكاثر مسرعة خارج بغداد حيث لم يبق من آل سامان وآل بكتكين من يقوى على إخماد ثورات آل سلجوق المتوالية أو صدّ غاراتهم المتعاقبة وقد سئم الناس تعصب السامانيين العنصرى كما ملّوا تعصب البكتكين المذهبي دون أن يجدوا عوضًا عن إراقة الدماء فى سبيل ذلك أو تقدمًا منشودًا فى نواحى حياتهم المعيشية والعلمية والصحية. فكان هذا العجز دافعًا قويًا لاستقبال الدولة الناشئة تعويضًا عمّا يحسّه المجتمع فى أعماقه من نقص مادى وروحى معًا. وبذلك وجد السلاجقة الطريق معبّدًا أمام انتفاضتهم ضد الغزنويين والبويهيين لولا بعض العقبات التى تغلبوا عليها فى قليل من الوقت ويسير من التضحيات.

ولسنا نعرف بالضبط ما هى الحوافز الحقيقية التى لجأت بالسلاجقة إلى الهجرة من بلادهم، فإذا كانت الضائقة الإقتصادية وطلب الكلأ والمرعى فلا ندرى بالتأكيد ما هى الدوافع الأخرى التى حدت بهم إلى المثابرة على القتال بعد شبع بطونهم وغرائزهم وإمتلاء أجوافهم وجيوبهم.

وبعد ظهور أمة بقليل أو بكثير يبدأ الحديث عن نشأتها وحياة قادتها بما يشبه الأساطير وتحاك حولهم أقاصيص البطولة وتنسج الملاحم الخرافية. ومن الطريف المؤسف أن يكون هذا جزء من التاريخ ثم يصبح مادة صالحة لتغذية الأدب بروائع القصص، لذلك لا يوجد لدينا ـ فى واقع الأمر ـ ما يدلنا على بداية السلاجقة الأولى ومكنهم وعقيدتهم بشكل علمى دقيق وكل ما ترويه المصادر التاريخية إنما هو من قبيل التكهنات والظنون يظهر على بعضها التناقض والاضطراب. وقد صدق الشاعر حيث قال:

الناس من يلق خيرًا قائلون له

مايشتهى، ولأمّ المخطئ الهَبَلُ

ومهما يكن من أمر فقد كانت الأحوال السياسية فيما وراء النهر مضطربة فى أواخر عهد السامانية والقره خانية والحروب بينهما متصلة وقد استغلّ «سلجوق» وقومه «الغز» ذلك فأفادوا منه مرانًا عسكريًا وخبرة على فنون الحرب كانت من

أسباب نجاحهم فى إعلان تمردهم على الحكومة القائمة وفى سياسة التوسع حتى بلغوا ـ نوربخارى ـ حوالى سنة ٣٧٥هـ[١]. ثم خلفه ابنه ـ إسرائيل ـ الذى دعى أرسلان ـ فى إمارة الغز وساعد القائد السامانى المنتصر على القره خانية سنة ٣٩٤هـ/ ١٠٠١م ثم حالف على تكين الذى استولى على بخارى والذى حاول السلطان محمود خلعه سنة ٤١٦هـ/ ١٠٢٥م[٢] حينما قام بحملة إلى ما وراء النهر متوجهًا نحو بخارى لمساعدة «قده خان» وعرف شوكة السلاجقة هناك وخاف بطشهم ورغب فى أن يعود بهم ليفرقهم فى بقاع خراسان المترامية. وغاظ السلطان تمنّعه فقبض عليه وعبر به أسيرًا إلى غزنة[٣]. وبقى الغز على شغبهم وشرعوا فى مهاجمة مدن العراق وأذربيجان بقيادة طغرلبك وجغرى بك داوود وبيغو أبناء ميكائيل الابن الثانى لسلجوق.

وليس من شك بأن للوباء الذى حلّ بنيسابور بسبب المجاعة والقحط اللذين شملا خراسان كلها فى أواخر القرن الرابع وأوائل القرن الخامس حتى سنة ٤٢٩هـ أثر كبير فى انهزام جيوش الغزنويين أمام جنود «جغرى بك داود» لانعدام العلف وضعف الجيش الغزنوى وانتشار الذعر والخوف من التركمان حتى ذاع بين الناس الحديث بنهاية دولة آل محمود وأن شمسها أذنت بالأفول[٤].

ومن هنا يبدأ تاريخ هذه الأسرة بشئ من الدقة والوضوح إذ إن فى المرحلة الأولى« قبل ظهور طغرلبك لم يكن للسلاجقة حكومة بالمعنى المعروف لهذا اللفظ وإنما كانوا يسيرون حسب التقاليد البدائية التى كانت بمنزلة التقاليد عند القبائل المتبدية، واستمر الأخوة الثلاثة على شنّ حرب العصابات فى الداخل.

(١) ويقال لها الآن «نوراتا» وهى شمالى بخارى الشرقى. انظر حمد الله مستوفى فى تاريخ كزيده ص ١٤٣٤ وبارتولد فى تركستان ص ١٢٢.

(٢) دائرة المعارف الإسلامية ـ مادة «سلاجقة».

(٣) البندارى ـ آل سلجوق ص ٥ ويسميه «ميكائيل».

(٤) الفتح الوهبى على تاريخ أبى نصر العتبى ص ١٢٥-١٢٧ وانظر كذلك مقدمة تاريخ بيهقى... ترجمة يحى الخشاب.

وقد حاول السلطان مسعود أن يسترضيهم بشتى الطرق فلم يوفق ومما تذرع به من وسائل المهادنة أن أهدى إليهم لقب «دهقان» فردّ عليه طغرلبك مهتزئًا[1] بهديته، وتابع الأسراء خطتهم فى الغزو والغارة إلى أن حدثت الموقعة الحاسمة فى دندانقان سنة ٤٣١هـ/ ١٠٤٠م التى انتصر فيها جيش طغرلبك على مسعود فأذعن له حكام الولايات الشرقية والوسطى طواعيةً وكرهًا، ولم يمر شهر رمضان من سنة ٤٤٧هـ/ ١٠٥٥م حتى خطب باسمه على منابر بغداد ولقّبه الخليفة القائم بـ «ملك المشرق والمغرب» سنة ٤٤٩هـ/ ١٠٥٧م»[2].

٣- المؤسس الأول لدولة السلاجقة: طُغرلبْك :

كان ـ لجغرى بك ـ أكبر الأخوةالفضل الكبير فى النصر الذى أحرزته الدولة وبسط سلطانها على تلك الرقعة الفسيحة بما قام به من فتوح لتوسيع حدود الدولة الجديدة وبما بذله من مغامرات وتضحيات لإيقاف هجوم الخوارزم شاهين والغزنويين ودفع بابنه «ألب أرسلان» لمطاردتهم حتى اضطروا لعقد صلح بين الطرفين وبهذا اندحر جيش الغزنويين إلى غزنة وسار جيش السلاجقة نحو فارس واتخذوا من نيسابور مركزًا له[3].

ولم يستقر الأمر لطغرلبك وتخضع له الأقاليم من حدود الصين إلى تخوم العراق الشرقية حتى وزّع تلك الرقعة الواسعة بين إخوته وأبناء سلجوق تطبيقًا لقاعدة التمليك القبلى فولّى أخاه ـ لأمه ـ إبراهيم ينال بن يوسف ـ قهستان وجورجان. وكان نصيب أخيه داود مرو وسرخس وبلخ إلى نيسابور، وولّى ابن عمه الحسن بن موسى هراة وبوشنج وسجستان وبلاد الغور وقصد بنفسه الرى، ثم فتح أصبهان واستطاب الإقامة فيها ونقل إليها أمواله سنة ٤٤٣هـ[4].

---

(١) جهار مقاله ـ نظام عروضى.

(٢) دائرة المعارف الإسلامية ـ مادة سلاجقة.

(٣) ابن الجوزى ـ المنتظم ، حوادث سنة ٤٥٠، ٤٥١هـ.

(٤) المرجع نفسه جـ ٨ ص٢٢٣، حوادث سنة ٤٤٣هـ.

والذى يغلب على الظن أن نشوة الظفر كانت تذكى بطغرلبك روح الطموح فلم ينتصر فى موقعة إلاّ ويزداد حماسًا لغيرها ولم يتبل فى معركة إلاّ ويزداد ضراوة فى أخرى، لذلك لم يسحق بجيوشه قوى البويهيين فى فارس حتى تدفق بحشوده نحو حدود العراق واستولى على الموصل عام ٤٤٧هـ، ثم توجه بجيوشه صوب بغداد عاصمة الخلافة لإبداء خضوعه للخليفة وإعذاره عما قام به جنوده من فظائع وفتك بالأرواح وهتك للحرمات خلال الغزو فلم يجد الخليفة تجاه الوضع الراهن الذى يقاسى مرارته وتعانيه الخلافة من ضعف «نصر ابن عضد الدولة» وسطوة القواد الأتراك الغاشمة وانتشار الباطنية فى أنحاء البلاد ـ إلاّ تأييد الفاتح الجديد والاحتفاء به والاعتراف بملوكيته على البلاد المفتوحة ومنحه الأوسمة والألقاب.

ومما قيل فى ذلك أن رسول الخليفة دعاه إلى بغداد فدخلها فى رمضان من سنة ٤٤٧هـ يرافقه وزيره أبو نصر الكندرى فى موكب فخم وأنه اتفق مع الخليفة على أن يكون رئيسًا دينيًا للمسلمين وهو صاحب الملك[١] بعد أن سبقته الرسل للخليفة القائم والملك الرحيم[٢]. وأقام بدار المملكة بأعلى البلد وطابت له الإقامة وعبث جنوده حتى شكاهم الناس وتندّر فى تباطئه الشعراء وقيل فيه:

عجبت لمدعى الآفاق ملكا ... وغايته ببغداد الركود
ومن متحلف بالهون يرضى ... يذاد عن الحياض ولا يذود
وأعجب منهما سيف بمصر ... يقام له ببغداد الحدود

لذلك فقد أرسل إلى الخليفة كتابًا تضمن الدعاء له وأنه قصد الحضرة الشريفة للتبرك بمشاهدتها والمسير بعد ذلك إلى الحج وعمارة طريقه والانتقال إلى قتال أهل الشام وكل معاند[٣]. وأكد ذلك إلى رئيس الرؤساء ـ ابن المسلمة ـ

(١) عبد الرحمن قنينو الاربلى ـ خلاصة الذهب المسبوك ص ١٦٥.
(٢) ابن الوردى ـ جـ١ ص ٢٥٤.
(٣) ابن الجوزى ـ المنتظم ، حوادث سنة ٤٤٧هـ.

وزير الخليفة القائم وهو يستقبله ممثلاً دار الخلافة فقال: «ما وردت بغداد إلاّ ممتثلاً للمراسم العالية ومتميزاً عن ملوك خراسان بالدنو من هذه الخدمة الشريفة ومنتقمًا من أعدائها وسائرًا إلى بلاد الشام لفتحها وإصلاح طريق الحج. فردّ عليه الوزير بعبارات الدعاء والموعظة وأوصاه خيرًا فى الملك الرحيم. ولكنه سرعان ما قبض عليه وقطع خطبته فى رمضان من هذه السنة»[1] ومكث فى بغداد ولم يغادرها إلاّ بعد عامين حين سمع بتمرد أخيه «إبراهيم ينال» الثائر عليه وعلى خلافة بنى العباس فى خراسان ولم ينته من القضاء عليه حتى طرقت مسامعه الأنباء بثورة «البساسيرى»[2] وفتحه بغداد ودعوته للفاطميين بمصر فلم ينجز مهمته حتى قفل راجعًا نحو بغداد لإنقاذ الخليفة الذى استنجد به[3].

وما أن تم له النصر على البساسيرى وعاد الخليفة إلى عرشه مع زوجته وولى عهده حتى أقيم له فى بغداد حفلة رائعة توّج فيها طغرلبك بتاجين يرمزان إلى السلطة على العرب والفرس وخلع عليه سبع حلل رمزًا للممالك الإسلامية السبع واعترف له الأمراء بالسلطنة فى المشرق والمغرب[4] حتى لقّب بذلك من قبل الخليفة القائم سنة ٤٤٨هـ.

ومن هنا توطّدت العلاقة السياسية بين الخليفة والسلطان الجديد إذ أبدى له من الإخلاص والخضوع ما قربّه إلى نفسه. وفى سبيل دعم هذه الصلة وربطها بوشائج قوية فقد طلب إلى الخليفة الموافقة على الزواج من ابنة أخيه «جغرى بك» وكان زواجًا رمزيًا إذ كانت تبلغ من العمر التسعين عامًا فقبلها الخليفة توثيقًا لأواصر الصداقة بين الأسرتين الحاكمتين.

ولعلّ نوازع الطموح التى كانت تراود السلطان الجديد بالاستيلاء والفتح منذ دخوله بغداد قد تمت واستقرت فى هذه الفترة بين سنتى ٤٥٢ و ٤٥٥هـ وكانت

(١) نفس المصدر.

(٢) انظر تفاصيل هذه الواقعة في ابن الجوزى ـ المنتظم حوادث سنة ٤٥١هـ ـ وابن ميسر جـ ٢ ص١١.

(٣) ابن الساعى ـ تاريخ الخلفاء ص ٩١.

(٤) ميرعلى ـ مختصر تاريخ العرب ص ٢٦٧.

مطامعه تتضاعف وتشتدّ كلما لمسَ ضعفًا فى الخلافة خلال هذه السنوات التى انتهت بوفاته. وكان من أهم وأقسى مظاهر الطمع والطموح أن طلب مصاهرة الخليفة والزواج من ابنته وهذا ما لم يجرأ به سلطان من قبل.

على أننا لا نستطيع الجزم بأنه كان طامعًا بالخلافة أو بقلبها إلى سلطنة حين دخل بغداد بعد ظفره بالبساسيرى منتصرًا ولم يكن للخليفة شأن يذكر وكان بإمكانه أن يستبدّ بالأمر ويعلن إنشاء دولة جديدة على أساس سلطانى، ولكنه لم يفعل ذلك لأنه ـ كما نظن ـ وجد فى شخصية الخليفة ومن أثر الخلافة فى نفوس الرعايا سندًا لتقوية سلطانه، وتشريع أوامره وأحكامه، وربما أحسّ فى أعماقه بضرورة نظام الخلافة وصلاحه، واعتقد بأحقية بنى العباس فيها دون سواهم من قريش وليس ذلك بغريب عليه، وهو السنّى المتحمس لدينه الجديد.

ومهما قيل عن فظاعة طغرلبك وجفوته فإنه ـ كما يبدو ـ كان رجلاً ذا فطنة وبُعْد نظر، وقدرة على اغتنام الفرصة، ولم يجهل الطريق السليم ـ كما قال عنه القرمانى ـ فقد عرف أن استقرار سلطانه منوط برضى الخليفة عنه وارتباطه به، فبادر لإرضائه وسعى لخدمته ولكنه لم يوفّق لذلك كما وفق فى قمع الفتن واخضاع الثائرين وتأسيس الدولة الجديدة. ومات عام ٤٥٥هـ عن دولة تمتد حدودها من خراسان شرقًا حتى حدود العراق وأرمينية غربًا، ولم يترك أثرًا حسنًا فى نفس الخليفة أو نفوس الناس، فقد أرغم الخليفة على مصاهرته والتزوج بابنته مما لم يسبق إليه عُرْفٌ من قبل، وقد ظلم الناس بفتح المجال لجنوده عند فتح كل مدينة، وأباح لهم ولنفسه «النزول فى دور الناس وارتكاب المحظورات»[1] ونهبهم الأهالى حتى كتب إليه الخليفة يلومه[2].

---

(١) ابن الجوزى ـ التنظيم جـ ٨ ، حوادث سنة ٤٤٧ – ٤٤٨هـ ـ وابن الوردى ص ٢٩٩.

(٢) سبط بن الجوزى ـ مرآة الزمان ورقة ٥٤٧ جـ ١١.

ولا يفوتنا ونحن فى خاتمة الحديث عن طغرلبك ودهائه وظواهر نجاحه وعللها إلاّ أن نشير إلى التوجيهات والإرشادات التى كان يتلقاها من وزيره - أبو نصر الكندرى - وينتفع بها فى فتوحاته وبسط سلطانه فقد كان ذا رأى وعقل كما قال عنه القزوينى[1].

٤- أول وزير لآل سلجوق: عميد الملك الكندرى:

وربما كان سلاطين السلاجقة أشدّ حاجة من غيرهم للاستعانة بالوزراء ولاسيما الأوائل منهم، وذلك لأنهم لم يستطيعوا خلال تلك الفترة القصيرة - من ظهورهم فى الميدان السياسى أن يتعلموا ويتحضروا، وأنهم استولوا على أقاليم ذات مدنية ودراية فى الحكم قديمة، ولغات وعادات بالنسبة إليهم غريبة مجهولة، لذلك وجدوا من الضرورى الإفادة من خبرات الرجال الذين تسمح الظروف بمعرفتهم والاتصال بهم، وكان من أقرب هؤلاء إليهم مشاهير الفرس.

أمّا.. لماذا اختاروا وزراءهم من الأجانب عنهم ورضوا بهم... فيعزو أحد الباحثين ذلك إلى نزعة الاستبداد التى باعدت بين قلوب الرعايا وملوكهم من جهة والتى حملتهم فى نفس الوقت على استخدام الموظفين الأجانب عنهم[2]. نضيف ذلك الواعز إلى ما سبق: أن السلاجقة لم يقدروا أن يصطبغوا بلون آل سامان والغزنويين وينسجموا مع الشعوب التى حكموها لأنهم ظلوا حتى النهاية بعيدين عن كل ثقافة حتى كان السلطان - سنجر - لايعرف القراءة والكتابة، ولو أن أباه ملكشاه كان حائزاً على ثقافة أوسع منه[3].

وقبل المضى فى الحديث عن - الكندرى - أول وزير للسلاجقة يحسن بنا

(١) القزوينى - آثار البلاد وأخبار العباد - مادة كندر.

(٢) بارتولد - تركستان ص ٣٠٨.

(٣) المصدر السابق.

التمهل قليلاً عند القسم الأول من هذا الرأى لما له من صلة باختيار الوزراء ومنهم الكندرى غريم وزيرنا «النظام» ومنافسه.

إن نزعة الاستبداد ـ كما يخيّل إلينا ـ وحدها لاتكفى بأى حال من الأحوال أن تكون الدافع للالتجاء إلى الوزراء واختيار مستخدمى الدولة القائمة من غير أبنائها، ولعلّ الاستبداد مدعاة للتفرّد بالحكم والاستغناء عن كل وزير وبخاصة إذا كان الحاكم متمكنًا قديرًا.

وقد يكون من بسائط الدعاوى أن نذهب إلى أن من المبادئ الأولية فى سياسة الفاتحين اختيار نفر من أقليات البلاد المفتوحة يعتمد عليهم فى إدارة الحكم تحت إشرافهم وطوع إشارتهم، ومازالت هذه الطريقة متبعة حتى اليوم... ولانظن نهجًا سياسيًا بسيطًا كهذا يحتاج إلى ثقافة ودراية واسعتين وإنما تكفى فيهما الخبرة والممارسة لأمور السياسة، وليست هذه عسيرة على شخص كالسلطان ـ طغرلبك ـ الذى مارس الحروب وخبر أداتها منذ نعومة أظفاره، وليس اختياره لشخص كالكندرى بالشئ الصعب عليه وقد زكّاه له ـ الموفق هبة الدين النيسابورى[1] ـ فى وقت كان فى أشد الحاجة إلى كاتب فصيح بالعربية.

أمّا القسم الثانى من رأى بارتولد فهو الذى جانب الصواب فى معظم ما أشار إليه إذ إننا لا نطمئن كل الاطمئنان إلى دعواه فى بُعْد سلاطين السلاجقة حتى عهد سنجر عن كل ثقافة، وبخاصة ألب أرسلان وملكشاه، لأن الترك بشكل عام قد تغيّروا بفضل اتصالهم بالعنصر العربى وحضارته. إلاّ أنها من نوع ثقافة الملوك، وهى ثقافة من لون خاص يختلف عما يتلقاه الدارسون فى الجوامع والمدارس ويتلقفه الباحثون من خزائن المكتبات ورفوف المخطوطات،

(١) ابن الأثير ـ الكامل جـ ١٠ ص ١١، حوادث سنة ٤٥٥هـ.

هى لون ناعم رقيق فى معانيه خفيف جذّاب فى أسلوبه ومراميه، إلاّ ما يتصل بالدهاء والتدبير وهما أمران يهون فيهما الخطب ويقل فيهما الجهد والتعب.

وسلطان هذا شأنه مهما كان لون ثقافته لا يستطيع أن يدير بنفسه مملكة واسعة وأن يراقب وحده موظفى دولة شاسعة، لذلك كان ضروريًا أن يعهد الأمر إلى وزير وأن يمارس وزراء السلاجقة سلطة لا يضاهيها سلطة فى عهد آخر.

ومع أن السلاجقة حديثو عهد بالإسلام، ويقتضينا هذا تحمسّهم الشديد له كما ظهر على بعض أعمالهم، إلاّ أنهم لم يشترطوا فى وزرائهم مذهبًا معينًا، ولاسيما أوائل سلاطينهم، وإنما كان الذى يهمهم فى الوزير كفاءته العلمية وجدارته فى تصريف الأمور وقدرته لحل مشاكل الرعيّة ليتفرغوا إلى الفتح وهواياتهم فى الصيد والقنص ومجالس الشراب، فقد استوزر ـ طغرلبك ـ أبا نصر الكندرى على الرغم من تضارب الأقوال فى عقيدته، فمن قائل إنه معتزلى رافضى وآخر شيعى غالى[1] بينما كان سلطانه معتزليًا حنفيًا[2].

وهو مهما اختلفت الآراء فى نزعته فإنه ليس على عقيدة سلطانه السنّى المتحمس فى الأصول على الأقل، وكان يكفى ـ طغرلبك ـ أن يكون وزيره أديبًا شاعرًا، له فى كتابة الرسائل بالعربية طريقته فى الترسل محمودة، ومواقفه فى البلاغة مشهودة[3]، وأنه كان يجيد التحدث بثلاث لغات: التركية، والعجميّة، والعربية، فى الوقت الذى كان لا يعرف الخليفة ـ القائم ـ التركية، كما كان يجهل السلطان ـ طغرلبك ـ ما سوى التركية، وكان هو المترجم للكلام بينهما[4].

(١) القزوينى ـ آثار البلاد ص ٣١٧ «مادة نيسابور ومادة كندر».

(٢) السبكى ـ الطبقات جـ ٢ ص ٢٦٩، ٢٩٩.

(٣) الباخرزى ـ الدمية ص ٤٠.

(٤) ابن الجوزى ـ المنتظم.

لقد شاع بين المؤرخين ـ أن عميد الملك ـ أول وزراء الدولة السلجوقية[1] ولكن بعض المصادر التاريخية تذكر أن طغرلبك قد استكتب قبله ـ أبا القاسم على ابن عبد الله الجوينى ـ حيث وزر له مدة. . «ثم نفض من الوزارة ذيله كل النفّض، ومال من كدها وتعبها إلى الدعة والخفض وقال فيها بمذهب الاعتزال والرفض»[2] والذى نظنه أنه كان قبل التوسّع ودخول بغداد وأنه لا يجيد العربية لذلك استعيض عنه بالكندرى.

وعلى الرغم من إلمام «الكندرى» بفروع الثقافة لذلك العصر وتذوقه لفنون الأدب ومهارته بأعمال الديوان وتحرير الكتب ونظم الشعر فقد كان تنقصه خصيصة ألصق بعمله من جميع ألوان المعرفة. هذه هى الحكمة السياسية التى لم يستطع بغيرها الصمود أمام خصمه وزيرنا «النظام» فقد صوّرت لنا سيرة حياته جوانب ضعف تزرى بالرجل السياسى أيّا كان منصبه فكيف به وزيرًا يشار إليه بالبنان، وبيده تصاريف الدولة ومصاير الناس.

ولعل أولى الأحاديث التى لاكتها الألسنة حكاية ـ خصيه ـ التى تدل ـ إن صحّت ـ وهى لاريب صحيحة لتواتر الرواية وثقة الرواة لها، على تخاذله أمام شهواته وإغراء النساء له، كما يروى عنه أبيات رقيقة فى غلام تركى تشير إلى حبّه للغلمان، فقد أرسله طغرلبك ليخطب له امرأة فخطبها لنفسه وتزوجها. قيل إن السلطان لمّا ظفر به خصاه واستبقاه لاحتياجه إلى كفاءته وقيل إنه خصى نفسه ليرضى عنه سلطانه ويطمئن إليه حتى قال فيه الباخرزى[3]:

قالوا محا السلطان عنه بضربه سمة الفحول وكان قرما صائلا

(١) هو أبو نصر منصور بن محمد الكندرى، وقيل محمد بن منصور نسبة إلى كندر قرية قريبة من قزوين، وقيل إلى بيع الكندر. وقد حصّل على لقب «سيد الوزراء» مضافاً إلى عميد الملك من الخليفة القائم. قبض عليه فى ١٧ من محرم سنة ٤٥٥هـ وصودرت أمواله وحددت أعماله واعتقل فى مرو الروذ حتى قتل فى ١٦ من ذى الحجة سنة ٤٥٦هـ ورثاه الباخرزى بأبيات ومدحه من الشعراء الحسن بن على الواسطى، وترجمه كثيرون منهم ابن تغر بردى فى النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ٧٦.

(٢) الباخرزى ـ الدمية ص ٢٣٨.

(٣) نفس المصدر ص ٨١ ـ وفي ابن الأثير ـ الكامل «تعزة» جـ ١٠ ص ١٣.

وسواء أكان هذا أم ذاك فإن الثقة به قد تزلزلت، كما أن فعلته قد نمَّت عن سوء نيته وخبث طويته. وثانى ما أوثر عنه حول سياسته الفاشلة وقصر نظره بفنون الحرب ما ذكرته المصادر التاريخية فى أحداث سنة ٤٥٠هـ فإنه حينما انتشر الخبر بأن «إبراهيم ينال» استظهر على أخيه طغرلبك وحصره فى همدان عزمت «خاتون» وابنها أنو شروان والكندرى السير ببقية الجند لانجاده فاضطرب أمر بغداد، وبطل عزم الكندرى فهمّت «خاتون» بالقبض عليه وعلى ابنها ففرّا إلى الجانب الغربى وقطعا الجسر وراءهما وخرجا إلى الأهوار، ونفذت خاتون بما انضوى إليها من العسكر إلى همدان[1]. ولهذا لم يبق فى بغداد لتهدئة أحوالها، ولم يذهب إلى همدان لمساعدة السلطان وإنما هرب من وجه «خاتون» إلى بلد آخر ليطمئن على حياته.

وثالث ما سجلته النصوص من سوء تدبيره، تعصبه الشديد لمذهبه وبغضه لأبناء الطوائف الأخرى حتى أشيع عنه أنه كثير الوقيعة فى الشوافع، وبلغ من تعصبه أن خاطب السلطان فى لعن الرافضة وقيل المبتدعة على منابر خراسان فأذن له فى ذلك، وأضاف إليهم الأشعرية[2] مما أثار عليه حفيظة أعدائه وسخط العلماء والعامة من الشوافع؛ فهجر خراسان أئمتها كالقشيرى والجوينى وغيرهما إلى مكة ومكثوا فيها أربع سنوات إلى أن جاء «النظام» إلى الوزارة فأعادهم إلى أوطانهم مكرّمين محترمين.

ورابع أخطائه السياسية ضغطه الشديد على الخليفة القائم للموافقة على زواج ابنته ـ السيدة ـ من السلطان طغرلبك وسفرها معه إلى الرى خلافًا لرغبة والدها الخليفة.. وهذا مما لم يجر به تقليد قبل ذلك ولم يجرأ بمفاتحة الحديث به جميع الملوك، لذلك اعتبرته الدار الخليفية امتهانًا لكرامتها وهدرًا لعزتها،

(١) ابن الجوزى - المنتظم، حوادث سنة ٤٥٠هـ ـ والسبكى جـ ٣ ص ٢٩٢.

(٢) ابن الأثير ـ الكامل جـ١٠ ص ١٠-١١.

وبقيت دار الخلافة تماطل فى تنفيذه شهوراً وتختلق لتسويفه وإبطاله المعاذير وأوشك أن لا يتم لولا إصرار الوزير وتهديده ووعيده حتى بات فى الديوان إرضاءً لسلطانه الذى قدر له نجاحه فى المهمة وأغدق عليه فى الهدايا وزاد فى ألقابه بعد زفاف بنت الخليفة إلى قصره[1].

وخامس فعاله التى تؤكد قصر نظره وضعف شخصيته وتفكيره، أخذه البيعة من الجند لسليمان بن داود فى الرى تاركًا أخاه الأكبر ـ ألب أرسلان ـ مع علمه بميل الجيش وأكثر الأمراء إليه وأنه أكثر مرانًا وخبرة بشئون الحرب والحكم، وأرسل إليه خطابين أحدهما بخطه يهدده فيه، فصارا فيما بعد مستندًا عليه ومبررًا لنفيه وقتله[2].

لقد كان من حق الكندرى أن يخشى غريمه ـ النظام ـ وكان حينذاك كاتم سر الابن الأكبر ـ جغرى بك داود ـ والمقدم عنده فى كل الأمور، ولما وثق بصحة هواجسه، وأن منصبه يهدد بالخطر لا محالة إذا تم الأمر ـ لألب أرسلان ـ دعا لأخيه الأصغر ـ سليمان ـ ولكن جهوده باءت بالفشل فلم تمر فترة قصيرة تخللتها مناوشات يسيرة حتى دخل ـ ألب أرسلان ـ الرى منتصرًا، ولم يمر على دخوله شهر واحد وهدأت الأحوال حتى عزله، ونفاه إلى مرو الروذ، ولم ينته عام ٤٥٦هـ حتى أمر بقتله.

وقد اختلفوا فى كيفية مقتله، ومن هو قاتله؟ مثلما اختلفوا فى عقيدته وما هو مذهبه؟.. فقالوا عنه: كان معتزليًا رافضيًا[3]، وقالوا: كان شيعيًا غاليًا متعصبًا[4] وقالوا: كان شديد التعصب على الشافعية كثير الوقيعة بهم[5] ولعل نسبة التشيّع

(١) ابن الجوزى ـ المنتظم جـ٨ ص ٢٣٠-٢٣١، حوادث سنة ٤٥٥هـ.

(٢) انظر ص ٢٤٩ من البحث.

(٣) السبكى ـ الطبقات جـ ٢ ص ٢٩٩.

(٤) القزوينى ـ آثار البلاد ص ٣١٧ مادة نيسابور ومادة كندر.

(٥) ابن الأثير ـ الكامل جـ١٠ ص ١١، حوادث سنة ٤٥٦هـ.

إليه إنما لحقته بسبب حمايته لأهل الكرخ ودفاعه عنهم[1] خلافًا لابن المسلمة وزير الخليفة. ولم تكن رعايته لهم من ميل لمذهبهم وإلاّ لما طلب إلى السلطان بعد قليل بلعن الرافضة، وهو بنظر العلماء يومذاك منهم، ولناصر البويهيين.. ولما سعى فى القضاء عليهم وإنما كان مردّ ذلك لأنهم حموا أفراد الجيش السلجوقى حينما دخل بغداد للامتيار وعلى رأسه طغرلبك بينما رجموهم فى باب الأزج وغيرها من محال بغداد فأمر السلطان بالإحسان إليهم[2].

وهكذا قالوا فى مقتله، فحكوا أن السلطان أنفذ إليه ثلاثة غلمان لقتله بعد أن قيل له إنه غير مأمون فى بقائه[3] ورووا إنه أنفذ إليه غلامين بعد أن خوّفوا السلطان من غائلة مسير أكثر الناس وراءه[4] أو أكثر العسكر نحوه وأشير على السلطان بتسفيره[5]. وقيل أرسل إليه السلطان غلامًا تركيًا فقتله، وكان مما يقال إن «للنظام» يدًا فى إثارة السلطان عليه والخلاص منه.. وذكروا أنه قال لجلاده ساعة قتله: «قل للوزير نظام الملك: بئس ما فعلت، علمّت الأتراك قتل الوزراء وأصحاب الديوان، ومن حفر مهواة وقع فيها ومن سنّ سنّة سيئة فله وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة»[6].

لقد كان «النظام» موضع ريب، وتهمته فى كل ذلك.. أنه هو الذى سعى للسلطان بالقبض عليه وإبعاده[7] وأنه هو الذى دفع الحاشية على أن يشيروا بحبسه فى «مرو الروذ» وقتله[8]... وكثيرًا ما تلقي الأقدار بالإنسان فى مواضع

(!) ابن الجوزى ـ المنتظم جـ ٨ ص ١٧١، حوادث سنة ٤٤٨هـ.

(٢) ابن الأثير ـ الكامل جـ ٩ ص ٢٥٥، حوادث سنة ٤٤٨هـ.

(٣) ابن الجوزى ـ المنتظم جـ ٨ ص ٢٣٥-٢٣٦، حوادث سنة ٤٥٦هـ.

(٤) ابن الأثير ـ الكامل جـ ١٠ ص١١.

(٥) سبط بن الجوزى، حوادث سنة ٤٥٧هـ.

(٦) المنتظم جـ ٨ ص ٢٣٨ حوادث سنة ٤٥٧هـ.

(٧) ابن أبى الفوارس أخبار الدولة السلجوقية ص ٢٦ط لاهور.

(٨) ابن الوردى، حوادث سنة ٤٥٦هـ.

الريب والشكوك وتحيطه بأمارات الجريمة وهو برئ منها براءة الذئب من دم ابن يعقوب ـ كما يقولون ـ وقد يكون فيما وصموا به «النظام» حقّا وأن له فى بعض ذلك يدا، ولكن المناقشة الحامية الحارّة التى دارت بين السلطان ـ ألب أرسلان ـ والكندرى قبيل إلقاء القبض عليه تدلنا على مقدار سوء ظنه به وأن عرضه للرسالة التى بعثها إليه مهددًا له إن جاء إلى الرى والمقام بنيسابور والتصريح له بالمحاربة ثم تقديمه له الكتاب الذى بخطه وهو يرعد فيه ويبرق،[1] مما ينبئنا بمدى غضب السلطان عليه وأنه كان يضمر له البغضاء إلى حين سنوح الفرصة لينتقم منه بسبب خطبته لأخيه سليمان وإلاّ لما احتفظ بتلك الرسائل لمثل هذه الساعة الحاسمة، حتى قيل إنها كانت سببًا لمنيته[2].

ومن جهة أخرى فإننا نجد «النظام» بعد مقابلة الكندرى له ورجائه أن يخاطب السلطان فيه، كان قد وعده بما طيّب به قلبه[3]. كما نجد تصريحًا له قاله خلال حوار جرى بينه وبين الباخرزى زميل صباه فى مجلس الإمام «الموفق النيسابورى»[4] وهو يزوره فى السجن بنيسابور، قال وهو يثنى على الصاحب بآلائه وسمّاه بأحسن أسمائه: «حقق أملى واستلب حياتى من يدَىْ أجلى»[5]. أمّا ما حكوه عنه: أنه فاه به للجلاّد قبيل تنفيذ الحكم عليه فإنه ـ على فرض صحته ـ إنما كان فى ساعة قلق نفسى واضطراب عصبى لا يدركهما إلاّ من يبتلى بهما ساعة تنفيذ الحكم بالإعدام فيه فكان من المتوقع أن ينطق بما يتهم به «النظام» وهو وزير السلطان، الأثير عنده، السميع لتوجيهاته ونصائحه.

ونحن لا نريد بدفاعنا هذا تبرئة «النظام» من جميع ما افترضه المؤرخون

(١) سبط ابن الجوزى ـ حوادث سنة ٤٥٦هـ ورقة ١٠٣-١٠٥.

(٢) سبط بن الجوزى ـ المصدر السابق، حوادث سنة ٤٥٥ ورقة ٩٤.

(٣) سبط بن الجوزى ـ مرآة الزمان ـ حوادث سنة ٤٥٧هـ.

(٤) ابن أبى الفوارس ـ أخبار الدولة السلجوقية ص ٢٣.

(٥) الباخرزى ـ الدمية ص ١٤٤.

فليس هو بنظرنا، سوى رجل سياسى يحمل بين جنبيه ما يختلج فى نفوس أمثاله من الوزراء، ولكننا نرجح أنه لم يشر على سلطانه بالكف عن التفكير بقتله على الأكثر، حيث لم نعثر على الأدلة الكافية بإدانته أو نقرأ نصًا يصرح بأنه أمر أو أشار على سلطانه بذلك مباشرة.

وليس بمستبعد أيضًا أن يثير «النظام» حول منافسه غبار الشكوك والتهم وأن يشير على سلطانه صراحة أو من طرف خفىّ بقتل الوزير السجين بعد أن حامت حول تصرفاته فى المنفى الشُبه لاتصاله بكبار الجنود[1] حتى أنه شكا أمره لزوجة السلطان ـ خاتون ـ بنيسابور أثناء مروره إلى المنفى وتوسّل إليها فتوسطت إلى السلطان بذلك فلم تجد رسالتها قبولاً[2].

وإذا ما وجهنا النظر إلى سيرة غريمه ـ نظام الملك ـ فإننا نجد فيها صفحات متماثلة، كما نجده قد وقف عند أحداث متشابهة موقف الحازم البصير فقد وصل إليه رسول الخليفة يطلب إليه يد ابنة السلطان فأخذه بعد أن حيّاه وهيأ له الجو إلى زوجته تركان خاتون ليستدرج رأيها، ثم سار به إلى زوجها السلطان ليستطلع فكره... ونجح فى الوساطتين دون تشديد على أحد الطرفين وأثبت بذلك مقدرة دبلوماسية قلّ نظيرها فى وزراء تلك العصور.

وكان موقف النظام خيرًا من سابقه كذلك، بل موقف السياسى المحنك، فلم يجيئ إلى الوزارة حتى راسل السيدة ـ بنت السلطان ـ بالإذن لها فى المسير إلى بغداد وقيل لها إن سبب تعويقها كان من عميد الملك، وقد قبض عليه لما فعله فى حقك ونقلك، وبعث إليها خمسة آلاف دينار، وسيّر فى خدمتها جماعة من الأعيان إلى بغداد وعلى رأسهم «أبا سهل محمد بن هبة اللّه الموفق»[3].

---

(١) ابن الأثير ـ الكامل.

(٢) ابن الجوزى ـ المنتظم.

(٣) سبط ابن الجوزى ـ مرآة الزمان، حوادث سنة ٤٥٦هـ ورقة ٩٥، ٩٦.

ثمّ أعاد النازحين من العلماء إلى ديارهم معززين وأوصلهم إلى أهليهم منعّمين، وجلبهم إلى حضرته، وجعل منهم دعاة إلى أهدافه ومقاصده ولم يظهر عليه تعصب مذهبى أو تحيّز طائفى... وإنما كان يزور ويزار من قبل رجال الفرق المختلفة ويجتمع فى مجلسه عظام الطوائف حتى المعتزلة والشيعة والمتصوفة.

فمن هو ذلك السياسى الخبير الذى شيّد للسلاجقة صروح دولة تفوق كل دولة فى ذلك الزمان[1] ومن هو ذلك الوزير الخطير الذى ساد بلباقته ودهائه على مملكة امتدت حدودها من كاشغر فى بلاد ما وراء النهر إلى بيت المقدس طولاً ومن قرب القسطنطينية إلى بحر الهند عرضًا، وكان فيها هو الآمر المتصرف[2] باسم الخليفة والسلطان معًا زهاء ثلاثين عامًا، وهذا ما لم يحدث فى تاريخ الوزراء من قبل وحتى اليوم؟.

* * *

(١) ابن طباطبا - الفخرى فى الآداب السلطانية.

(٢) السبكى - طبقات الشافعية جـ ٣ ص ١٢٩، والذهبى - دول الإسلام جـ ٢ ص ٩-١٠.